فندق الموتى

◆ خالد الصالح / الموصل

رائحة الفانوس المشتعل هي رائحة فانوس مشتعل.. رذاذ أشعته يلسع أصابعه.. يلمس بإصبعهِ زجاج الفانوس، لا يلتذُّ بلسعة الألم، فيعيد الكرَّة، مرتين، ثم يضع إصبعه في فمه ليتذوق الضوء، ويعيد الكرة بإصبعٍ مختلف، تظهر فقاعات بيضاء على رأس سبابته، ويتغير مذاق الألم، ويتغير كل شيء...

حلم راقص.. وأنا.. أمير الرقص، لا أميز بين الرقص والراقص، وعندما تغلغلت في رقصة الشوارع والأزقة المعتمة، وهبطت درجات القبو الرطب الذي أعيش فيه، خيل إلي أن مقبرة أخرى قد بدأت تبتلعني...

في اليوم الثالث ظهرا انفض مجلس العزاء..

قوضت الخيمة الكبيرة التي كانت تحتل مساحة واسعة من الشارع..تفرق المعزون والمقرئون والمرتزقون ، بعد أن شربوا آخر فنجان قهوة مرّة،ودخنوا آخر لفافة تبغ.ولما لم يبق إلا نفر قليل من الأقارب والأصدقاء حملتنا بضع سيارات صغيرة وانطلقت بنا نحو المقبرة.

كان الطريق يتلوى صعودا نحو الجبل..هكذا كنا نسمي ذلك المرتفع الذي يحاصر المدينة من جهة الجنوب.وعلى جانبيه تلال من الركام والبقايا والأقذار،تمتد وتتطاول وتتناثر فتصادر مساحات منه حتى يكاد أن ينغلق. شعرت بالضيق والغيظ..استعرت نار في صدري وقلت في نفسي مستنكرا:كيف يجعلون من الطريق مزبلة . هذا الدرب الذي سوف نمشيه يوماً مرة أخيرة لا رجعة بعدها.أليس للمقبرة حرمه؟!أليس للموتى كرامة؟!استدركت بشيء من السخرية المرة:ماذا أقول أنا!وهل للأحياء حرمة أو كرامة!.توقفت السيارات في المقبرة ،وقفنا بخشوع،لم ينبس أحدنا بكلمة،كان الصمت سيد الموقف.أكاليل الورد بدأت بالذبول إلا أن أحداً لم يعبث بها. قلت في سري:مازال للموت رهبته وللقبور قداستها،أو لعل الخوف من هذا المصير الذي لا مفر منه هو الذي قيد أيدي العابثين والمتطفلين، إذ أن المرء عندما يقف هنا ويرى شواهد جديدة تغرس كل يوم ، في هذا الامتداد اللامتناهي يصبح شخصا آخر..يتبدل كليا..يشعر بالرهبة والخشوع، يترفع عن الدنايا ويسمو إلى عالم تتجلى فيه الإنسانية في أنقى صورها.

هممنا بالعودة بعد أن قرأنا الفاتحة..هدرت محركات السيارات وتحرك بعضها على عجل.

فاجأني صوت ضعيف خافت:

-هيه..أنت، انتظر..

شدني الصوت،تلفت يمينا ويسارا،نظرت ورائي،سمعت دقات قلبي،سرت رعشة في بدني..تساءلت:ماذا أصابني هل أنا أتوهم ؟!

كرر مرة أخرى:أنت ابق قليلا..أريدك.

تلكأت في المسير،تعثرت خطواتي..

نادى على صاحب السيارة التي أقلتني:ما بك؟ماذا تنتظر؟

قلت وأنا أحاول أن أخفي دهشتي واضطرابي:لاشيء،أنا آت.

جاءني الصوت مرة أخرى:هيه..أنت أيها الرجل،نعم أنت ..ألا تسمعني؟!قلت لك انتظر.

كان الصوت يتسرب من أسفل القبر الذي وقفنا عنده قبل قليل.

وهنت قواي،تسمرت قدماي في الأرض.التفت إلى الوراء،رماني رفيقي صاحب السيارة بنظرة دهشة واستنكار وقال لائما معاتبا عندما وصلت إليه:

-لم نبق إلا نحن ،أنا وأنت ،ما بك.

تهاويت بجانبه فكرر سؤاله: ما بك؟وجهك شاحب،وأطرافك ترتجف.؟لم هذا كله؟الموت علينا حق، والميت كما اعلم ليس من ذويك ولا هو من أصدقائك المقربين.

ما كان عليك أن تنهار هكذا.

صمت لحظة ثم أضاف مستغربا:

-عيناك حزينتان..هل بكيت؟

قلت وأنا أحاول أن أبرر موقفي:كلٌ يبكي على موتاه.

رد قائلا:هذا صحيح، ولكني ما عهدتك هكذا.

ظل الصوت يلاحقني.صداه يتردد في أذني، راجياً، معاتباً راجياً: لماذا انصرفت تنتظر وتسمعني.لماذا...لماذا..؟

انتبهت إلى نفسي وأنا أقول بلهجة من يريد الاعتذار: سأعود، سأعود.

ظن صاحبي إني أتحدث إليه فالتفت إلي وقال مستفسرا:إلى أين..إلى المكتب أم إلى البيت؟ أيقظني سؤاله من ذهولي فقلت دونما تفكير:لا أدري.ثم أضفت:خذني إلى البيت.

ساعات بعد الظهيرة كانت ثقيلة مرهقة.أحاول أن أبعد عن خيالي ما حسبته وهما فلا أفلح.الصوت يتردد في مسامعي وصداه يثير الرعشة في بدني وأنا بين واثق وحالم.قلت محاولا أن أبدد سحابة سوداء في خيالي: هذا وهم أنا أتوهم. لقد هزني الموقف إلى درجة كبيرة سدت علي مسالك التفكير فخلطت بين الوهم والحقيقة.

ضحكت ضحكة ساخرة..لم أقتنع بما قلت فأضفت:ما الفرق بين الوهم والحقيقة..ما الفاصل بينهما؟خيط رفيع، رفيع جدا.لقد التبست علينا الأمور وت، بللت المعايير، فلماذا لا يكون ما سمعته حقيقة؟!لماذا يكون وهما وفي كل يوم، بلل في كل ساعة يطلعون علينا بحقائق جديدة وأوهام جديدة حتى تهنا وتاهت بصائرنا..

قبل الغروب عقدت العزم واتجهت صوب المقبرة..ابتعدت عن البيوت وسلكت الطريق نحو الجبل.شعرت برعدة في أوصالي..ترددت إلا أنني لم أتراجع.وصلت القبر الذي وقفت عنده منذ ساعات..درت حوله..تأملته، حجارة جف طينها تكللها باقات ورد ذابل، وعلى مد البصر تناثرت آلاف القبور الكبيرة والصغيرة بغير انتظام..

ثمة بقاع أخرى خالية تنتظر أصحابها من بين الأحياء.

ساورني شك بما سمعته هنا،قبيل الظهيرة، فهدأت نفسي وشعرت بشيء من الارتياح.

نظرت حولي..

كانت الشمس قد بدأت تتكئ على الطرف الغربي للمقبرة ، حمراء كبيرة، والظلال الرمادية تمتد شرقا، تتطاول، تحاصر مساحات الضوء الصغيرة المتبقية ثم تغطيها تماما.

ساد المكان سكون موحش تخللته أصوات طيور مهاجرة، وقبل أن أسلك طريق العودة فاجأني الصوت:

– ها..لقد جئت.كنت أعرف أنك ستأتي.

سرت قشعريرة في بدني.. انتفض قلبي بقوة .. ارتعبت .. التفت .. لم أر أحدا.

جاءني الصوت من القبر ذاته..رزينا هادئا وقد غلبت عليه رنة حب وحزن:لا تخف..أريد أن أسألك.. قاطعته متظاهراً بالجرأة والشجاعة : أنا لست خائفا ولكنني مندهش .. أنا لا أصدق . رد قائلاً: لا تصدق أنا لا ألومك.

قلت:ماذا تريد أن تسأل؟

سكت لحظة ثم قال بصوت خفيض متهدج:رأيت في عينيك دموعا حقيقية، نعم حقيقية، كنت تبكي بحرقة، كنت حزيناً جداً.لا تقل انك بكيت علي. معرفتنا قصيرة ومحدودة، لا تدعو إلى هذا القدر من التأثر والانفعال على من كنت تبكي؟

قلت:عليك وعلى غيرك ممن غيبهم الموت وصاروا تحت التراب .. على الأخوة..على الأصدقاء الذين فارقونا ..على الأبناء الذين اختطفهم الردى وهم في زهو الشباب..

ضحك ضحكة ساخرة حزينة ثم قال:

– أنت لا تبكي عليهم..أنت تبكي على الأحياء، نعم أنت تبكي على الأحياء. نحن هنا في مأمن، لا خوف علينا، الخوف والبكاء عليكم أنتم، يا من تدعون أنكم أحياء.بالله عليك قل لي:هل أنتم أحياء حقا؟! انظر إليكم، أتأمل مساحات الحزن واليأس والخوف على وجوهكم.أنتم تموتون كل يوم،كل ساعة،منذ الصباح حتى الصباح،لا تقل لسنا جميعا كذلك،أنا أعرف هذا فلكل قاعدة استثناء،ومن تعنيهم ليسوا منكم..إنهم بشر من نوع آخر..إنهم غرباء عنكم ،لا أنتم منهم ولا هم منكم.أنا أعنيكم أنتم..يا من مازالت عيونكم تذرف دموعا ساخنة صادقة على كل ما ضاع وسيضيع..أنتم تستحقون البكاء،نحن هنا نستطيع أن نجتمع ونلوم ونعتب،نقول ما نريد،لا نخشى شيئا ولا نخاف أحدا..لا بغضاء ولا كراهية ولا دسائس ولا مؤامرات..كلنا متساوون،ليس بيننا حاكم أو محكوم ولا ظالم أو مظلوم،فلا تحزن علينا بل احزن عليكم.

تهدج الصوت ثم خفت، كأنه آت من بئر عميقة..

كأنه الصدى يتردد في فضاء المقبرة هادئا رتيبا متقطعا:احزن عليكم أنتم..احزن عليكم..ثم سكت تماما.اختلجت جوارحي..عصفت بي مشاعر عنيفة..

تلفت حولي..بعد قليل يهبط الظلام ويعم الكون سكون موحش.

أسرعت بالعودة،وعندما انحدرت من المرتفع الجنوبي الذي كنا نسميه جبلا،ظهرت معالم المدينة التي ترقد عند السفح بصمت وهدوء.مسحت بناظري تلك الكتل من الحجارة الرمادية والنوافذ الصغيرة والأبواب الموصدة..خلف هذه الأبواب والنوافذ ترقد كتل بشرية،هياكل عظمية يكسوها جلد متغضن..أفواه فاغرة لم تعرف الشبع يوما..عيون غائرة،ألسنة خرساء،أحلام مصادرة،رغبات مكبوتة، كلمات لا تقال إلا همسا..عبارات نتبادلها بالإشارة.